

القسم الحادى عشر:

الاستعمار يواجه الاسـلام فى الجزائر

قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك
من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز
من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير
إنك على كل شىء قدير

(آل عمران)

ولنبلونكم بشىء من الخوف
والجوع ونقص من الأموال
والأنفس والثمرات وبشر الصابرين
(البقرة)

قل إن صلاتى ونسكى ومحياى
ومماتى لله رب العالمين .

(الأنعام)

تبين للعالم قوة الإسلام ، وعظمة الرسالة المحمدية ، في هذه الآيات البينات ، التي دعت المسلمين إلى الصبر والمصابرة ، للوقوف أمام حوادث الدهر بشجاعة وثبات ، فلا تلين قناتهم ، وتذهب ريحهم وإنا لنبعث بها تحية لأخواننا المسلمين بالجزائر ، الذين وقفوا أمام فرنسا وجبروتها . ولئن كانت صفحات كفاحهم السياسي والحربي في الجزائر ، معروفة أمرها وتداولها الأيام ، فإن كفاحهم الديني في وطنهم وثباتهم معجزة من معجزات الله لأن فرنسا في معاهدة ١٨٣٠ مع حاكم الجزائر تعهدت كما قلنا باحترام الدين الإسلامي وشعائره ، وأخذت على نفسها الموائيق ، لأن تترك للمسلمين أوقافهم وعوائدهم ثم عقدت عدة معاهدات . واتفاقات ، مع الأمير عبد القادر الجزائري وغيره من الزعماء ، وفي نصوصها جميعا : العهود والموائيق على غرار هذه المبادئ ، وهي حرية العقيدة وترك أمور الدين الإسلامي وشعائره بيد أهله .

والكن هذه المعاهدات ، وما تحمله من إيمان ووعود ، وما أعقبها من تصريحات رسمية صادرة من الحكومة الفرنسية وممثليها ، ثم من الإمبراطور نابليون الثالث نفسه ، عند زيارته للأقطار الجزائرية كل هذا لم يمنع الاستعمار أن يبسط يده على كل شيء في هذه البقعة العزيزة علينا ، وكان من جملة ذلك أن مدت فرنسا يدها إلى الدين

الإسلامي، وإلى الأوقاف الإسلامية، تراث القرون الماضية ومفخرة المسلمين، لأنها أوجدت ووقفت وبقيت طول الأزمان واحترمها ملوك المسلمين وأمرائهم لما يعلمون من أنها أرصدت للصرف على المؤسسات الإسلامية، وهي هذه المدارس والمساجد الجامعة، التي تحرص على تثقيف أبناء الأمة، وتثبيت قواعد الدين، وتلقين الناس تعاليم الشريعة الغراء.

فما الذي حدث في الجزائر؟

ذكر الدكتور انريكو انسباتو الإيطالي في كتابه الإسلام وسياسة الحلفاء (ص ٧) ما يأتي بالنص:

ارتبطت الحكومات الأوربية في بعض الجهات باحترام أملاك الأوقاف وما أرصد من الأملاك على الزوايا والطرق الصوفية، وهذا شرط خطير يحسن بإيطاليا أن تفكر فيه طويلا، قبل أن تأخذ به، لما ينتج عن احترامه من نتائج وخيمة، سبق لفرنسا أن تحملتها في الجزائر، لأنها حينما أعطت هذه الموائيق والعهد لم تكن لديها فكرة واضحة تماما، عن أهمية أوقاف المسلمين، وأثرها في إبقاء قوتهم الدينية، فكان من نتيجة هذه السياسة المرتجلة أن ارتكبت فرنسا سلسلة من الأخطاء للخروج من هذه السياسة، التي فرصتها على إرادتها، فاضطرت أن تناقض ما أخذت به نفسها، وتعهدت للمسلمين باحترامه.

(١) ولما هاجم المستعمرون نظام الاوقاف في شمال إفريقيا عامة ، قالوا :
إنه نظام رجعي ، يمنع تداول الثروات ، والقصد من ذلك حرمان
المسلمين من أملاكهم ، ونسبوا إليه أنه نوع من إستغلال عمل الإنسان
لأنه يفرض الجبر وذلك حينما رأوا الطلبة والمريدين يتلقون العلم في
الزوايا والمدارس الإسلامية ، ويعملون في زراعة الاراضي
الملحقة بالمعاهد ، وكانوا يطلقون على هذا العمل التعاوني الإنساني :
إسم المعونة . ولما ازدهرت أملاك الاوقاف وزاد خيرها استكثروا
هذا الخير عليها : وحاربوها باسم الحرية والعدالة والمساواة ، وهم
يعلمون أنهم يقصدون أولا وآخرا هدم قواعد الدين وأفقار أهله
وهذا ما وصلوا إليه ، حينما شردوا الطلبة ، ونزعوا أملاك الاوقاف
ولم تكن هذه الاوقاف مرصدة للعلم وحده ، وإنما كانت لوجه
الله للسائل والمحروم ، وفي هذه الناحية بالذات يقول صاحب كتاب
« التشريع الإسلامي الجزائري » صفحة ١٨٠ ما يأتي ،
إن خمسة أعشار الاراضي الزراعية في الجزائر كانت أوقافا ،
وأن فرنسا حينما صادرت هذه الاملاك بسطت يدها على الدين
الإسلامي ، وجعلت آلافا من الاهالي الذين كانوا يعيشون في تلك
الاراضي جماعات ، تتجول لطلب العيش ، فأصبحت تسمى
بفيالق الفقراء .

(١) يلاحظ القارىء أن الذين يهاجون الاوقاف بمصر يستعملون منطق
الدول الاستعمارية .

والحكومة الفرنسية تمثل فكرة لادينية^(١)، ومعنى هذه السياسة في العرف الذى نادت به فرنسا هو الكنيسة الحرة ، تتعاون مع الدولة الحرة .

وتفسير ذلك أن تمتنع الحكومة عن فرض إرادتها على أنظمة الكنيسة، وقرارات رجال الدين ، فيبقى الفاتيكان يقوم برسالة الدينية والسياسية بحرية أوسع مما كان فى السابق .

ولما انتقدت سياسة فصل الدين عن الدولة صرح احد اعضاء مجلس الشيوخ « إن هذا الفصل طلاق ولكنه يلزم الطرفين بالعيش تحت سقف واحد مع تعاون وتفاهم أوفق مما عهداه قبل صدور حكم الطلاق . . »

وقال أيضا « أن الكاثوليك سيكونون أكثر كاثوليكية تحت هذا القانون ، لانه يؤكد سلطة البابا ، ويحترم ممثليه ويترك لهم الحرية دون أن يقفوا للدفاع عن أعمالهم أمام ممثلى الجمهورية . »

وايس هناك أصرح من هذه الأقوال لترك شئون الله ، وشئون قيصر لقيصر ، فما الذى هيأته حكومة الجمهورية التى فصلت الدين عن السياسة لرعاياها المسلمين ، الذين اعترفت لهم بحقوقهم الدينية كاملة ؟ .

يقول صاحب كتاب : بحث النشريع الجزائرى ص ٦٢٢
لارشير .

إن الأوقاف الإسلامية التى تنولاها الدولة يصرف دخلها
على ناحيتين :

الدين الكاثوليكي ٧٩٠.٠٠٠ فرنكا

الدين الإسلامى ٢٣٧.٠٠٠ فرنكا

والاعتراض الاساسى هو كيف تتولى دولة ينص دستورها على
فصل تام بين شئون الدين والدنيا أملاك دين ، لم يكن لها بها صلة فى
يوم من الأيام ، فعلى أية قاعدة بنيت هذه السياسة ؟

والإعتراض الثانى : هو إذا فرض أن رأت هذه الدولة أن
تتبرع من أموالها بهذه المبالغ ، وهى دولة لادينية فالمعروف أن
أتباع الديانة الكاثوليكية لا يصلون إلى عشر السكان المسلمين ،
ولكنهم يتمتعون بما يزيد على ضعف المبالغ المخصصة للشئون
الدينية لمن هم أكثر من عشرة أضعافهم ، فأى قاعدة إنصاف
أخذت بها ؟ .

ويهون الأمر لو كان هذا تبرعا ، ولكن لأن يؤخذ هذا من أملاك
وأموال وأوقاف المسلمين وهى مرصدة ومحبوسة على هذه الناحية

منذ قرون طويلة الأمد ، ولم يتعرض لها أحد من الدول ، التي تعاقبت على حكم الجزائر ، وهذه ثلاثة الإعتمادات ، التي لا يبررها منطق للآن ، ويفسر لنا كيف ضعفت الحياة الدينية في الجزائر وفي ذلك يروى لنا (البير ديفوكلي A . Devauchi في كتابة المؤسسات الدينية في العاصمة الجزائرية أن مدينة الجزائر كانت تحوى ١٨٦ مسجداً في سنة ١٨٣٠ ولا يوجد في القطر الجزائري بأ كمله غير ١٦٦ مسجداً جامعاً كما ذكر ذلك صاحب (بحث التشريع الجزائري) ولا نشك في أن هذا العدد سيهبط إذا دام حكم فرنسا جبلاً آخر . وليبان هذه السياسة التعسفية إزاء المسلمين وشريعتهم ودينهم يحسن أن نشرح هذه الفكرة ، من مراجع الاستعمار الفرنسي نفسه . فقد جاء في كتاب جورج هاردى G , Hardy « نظرياتنا الإستعمارية الكبرى » إنه في المناطق التي لم يسدها الإسلام قط أى في أفريقية السوداء ، يجب أن تحاط الأديان والمذاهب الأفريقية بما يكفل حمايتها وبقائها وفي مناطق البربر يجب منع تعليم اللغة العربية منعاً باتاً ، وعدم تشجيع نشر المكاتب القرآنية ، ومنع نصب القضاة الإسلاميين والحيلولة دون تنفيذ شريعة الإسلام ، « أما في الجهات التي ثبتت قواعده في ربوعها فلا مانع من تركه »^(١) يعيش ، ولكن فلنحترس من الاهتمام بأمره ، وإظهار الإعجاب به .

(١) تنفذ بعض الدول الإسلامية المستقلة هذه السياسة في أراضيها .

فهم هذه أصول السياسة الإسلامية الفرنسية، وهي تحول دون إنتشاره في أفريقيا، وتعتبر القبائل من أهل الجزائر ومراكش غير مسلمين ، وتحاول أن تحد من أثر الإسلام في المناطق الإسلامية الصميمة .
فلننظر إلى بدء هذه السياسة ، وما تركته في نفس الشيخ محمد يرم التونسي ، صاحب كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ، الذي طبعه سنة ١٣٠٢ هجرية ، عن زيارته للجزائر ، في رحلته عام ١٢٩٥ هجرية ، وقد مضى على ذلك سبعون عاماً تقريباً إذ قال :

أن الدولة الفرنسية هي القائمة بمصاريف إقامة الجوامع وما فيها من قراءة الأحزاب أو كتب الحديث ، لأنها استولت على جميع الأوقاف ، واقتصرت في كل بلد على عدد مخصوص من المساجد ، تقوم به وغيره ، تصرف فيه بما يناسبها ، وحرمت المستحقين من مالهم كأوقاف الحرمين .

وذكر كيف أقدمت الهيئات التبشيرية عند وقوع المجاعة الكبرى في الجزائر على تنصير عدد من الأولاد الأعراب وغيرهم من المسلمين بنات وأطفالاً ، وإن بعضاً منهم لما كبروا وعلوا بأن أهلهم مسلمون فروا إلى أهلهم .

وأشار إلى بقية من علوم السلف كانت تدرس في قسطنطينية
وتلمسان والجهات الجنوبية ، ولكن القلق كان شاملاً أفاضل العلماء
فقد تقابل مع الشيخ علي الخفاف المفتي المالكي بقاعدة الجزائر
وهو من تلامذة علامة القطر الأفريقي الشيخ إبراهيم الرياضي ، وله
فضائل كاملة ، وتقوى ، وسكينة ، وإطلاع في الفقه والحديث . ولما
أنس بمؤلف الكتاب فاتحه في أمر الهجرة إلى بلاد الإسلام فأخبره
أن مثله نادر الوجود ، وإن بقاءه فيه لتعليم الناس دينهم أنفع له ،
وأكثر ثواباً عند الله من خروجه بنفسه ، وترك تلك الأمة المسلمة
خالية من مثله ، بل ربما كانت هجرته سبباً في خروج غيره فتحرم
عامة المسلمين ممن يلقنهم تعاليم الإسلام ، وعقائد الفقه . وقد ورد
في كتب الشريعة أنه إذا تعذر على ولي الأمر فداء الأسارى من يدي
العدو فليؤخر بينهم العلماء .



فهذه حالة الجزائر من ناحية من أهم النواحي التي تهتمنا ، ناحية
العقيدة الإسلامية ، وفيها عبرة وتذكرة ، لمن يريد أن يفهم حقائق
الإسلام في قطر من أعز الأقطار الإسلامية ، وأقربها إلينا ، وأبعدها
أثراً في تاريخ أفريقية العربية ، التي لن تموت ، وفيها دعائم
الإسلام القائمة .

وإننا لنعدها معجزة إن بقيت هذه الدعائم في أفئدة ملايين من الناس بعد سنوات الضغط السياسى ، والمحاربة التعسفية ، التى أشرنا إليها ، ولكن الذى نخشاه هو أثر سياسة الفقر ، التى فرضتها فرنسا على رعاياها المسلمين ، فهذه أبعد غوراً من أى أساليب الإرهاق التى رآها العالم ، وهى التى ورد وصفها فى محكم الآيات الواردة بالقرآن ، بقوله تعالى (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس) فقد أصيب المسلمون فى نكبتهم بالاستعمار الفرنسى بهذه النوائب : قلة الغذاء ، وكثرة المرض ، وسكنى المنازل التى لا تليق بالإنسان ، ثم دهمتهم فى السنوات الأخيرة نكبات القحط المتتالية ، وتفشت فيهم الأمراض الفتالة .

فهناك تفعل قلة الغذاء ، أو عدم تنظيمه ما تفعله فى كافة بلدان الدنيا ، التى أصيبت بحكم الأوروبيين ، حتى أصبح الكلام هنا إعادة لما سبق ذكره ، وتأثير هذا كبير فى تكاثر السكان وتناسلهم ، وفى إخراج جيل من الأجناس البشرية ضعيف لا يقوى على البقاء أو الصمود أمام تفوق الأجناس الأوروبية من الناحيتين العقلية والبدنية . ويسكن لدينا عدد من السكان فى أكواخ من صفائح الغاز الفارغة ولكن فى الجزائر يعيش أكثر من نصف مليون مسلم ، فى أحياء برمتها ؛ أو فى مدن قامت على هذا النوع من المساكن ، ولهذا لا نعجب

أن نسمع أن أكثر من ٤٠٠.٠٠٠ جزائري مصابون بالسل ، وهو يعادل عدد المصابين به في فرنسا ، وعدد سكانها يقرب من أربعين مليوناً ، ولما كانت الوقاية الصحية غير متوفرة لدى الأهالي وليس لديهم أية خدمات لحمايةهم ، فقد انتشرت الأمراض الزهرية انتشاراً اجتاح قرى برمتها .

إن أعظم صورة تقدمها فرنسا بعد حكم دام أكثر من قرن من الزمن هو مراكب النساء والرجال والأطفال ، الذين لا يجدون من الكساء إلا مايسترهم يسرون نحو بقايا الأطعمة ومن ألبها يلتقطونها لسد رمقهم . بعد أن حرمتهم حكومة الاستعمار من زعمائهم ، وقادتهم ، ومدارسهم ، وأوقافهم ، وفرضت عليهم الذلة والمسكنة ، وحرمتهم من كل مميزات شخصية الدين واللغة والتوجيه . لقد بقي لهم شيء واحد هو الإسلام والإيمان بالله .

(قل أن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) .

قد يرى البعض أن الأمة التي كانت ترج البحر الأبيض المتوسط قبل احتلال فرنسا قد رقدت رقتها النهائية وأصبحت في ذمة التاريخ بعد أن أدت رسالتها ولكن مخطيء في ظنه . فالأمة الجزائرية ستحطم هذه الأغلال ، وستخرج من هذه الظلمات بقوة تهب فرنسا والكولون الفرنسي ، لأن النيران المتأججة لا يزال بريقها

واشعاعها تخفيه تحت الرماد. امة إذا تحركت وثارَت ستهز هذا الزكن
هزة عنيفة ، لا تقدر على الوقوف إزاءها قوات الظلم والتعسف .

« اننا لا ننتظر الرحمة من أشد الناس عداوة لنا . »

« كما لا نرضى بالعطف يغمرنا به أحب الناس إلينا . »

« دعوني أصار حكم بالحق : والحق اقول . »

« أى أخوانى فى الحروب والمعامع والمعارك . »

« انى احبكم من اعماق القلب . »

« انى اعاهدكم كواحد فيكم . »

« اننى كما كنت فى الماضى سأبقى اليوم وغدا واحداً منكم . »

بهذا النشيد الذى كتبه الفيلسوف الالمانى اختتم هذه الكلمة

وهو ينم عن شعورى تماماً : وأعتقد أن المسلمين فى كفاحهم سواء

فى شمال إفريقيا أو فى أنحاء روسيا ، أو فى مقاطعات الهند ، لن

يقا بلهم خصومهم بالرحمة : سيفرض علينا القتال وهو عراك حتى الموت .

فأما النصر أو الابدادة ولا وسط بينهما .

إن الحياة هى التفاؤل ، ونحن ندعو إلى انتزاع النصر فى السلم

والحرب ولا يكون هذا إلا بنقل الجماعات الإسلامية إلى حياة

القرن الذى نعيش فيه وتحاشى الوقوع فى الأخطاء التى وقعنا فيها قبل اليوم

مراجع الكتاب

كتب عربية

١ - في بلاد الناس أو رحلة الشتاء والصيف .
بلاد الجزائر القطر التونسي طرابلس الغرب
المطبعة العثمانية . بيروت
تأليف عبد المجيد كامل الضابط بالجيش المصري سابقاً

٢ - تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر
المطبعة التجارية . الإسكندرية ١٩٠٣

٣ - صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار

١٣٠٢ هجرية

تأليف محمد بيرم التونسي

کتاب فرنیة

- | | |
|--|---------------------|
| 1 — Histoire de l'Armée Française | Général Weygand |
| 2 — » Militaire de Mohamed Aly et ses Fils | Parle |
| 3 — Campagnes Modernes | » Général Decoins |
| 4 — Nos Grands, Problèmes Coloniaux | » Georges Hardy |
| 5 — Réalités Coloniales Mercure de France | |
| 6 — Pour l'Empire Colonial Français | » Gabriel Hanotaux |
| 7 — La Révolte Arabe | » Eugène Jung |
| 8 — L'Avenir Economique de nos Colonies | » » » |
| 9 — Voix de l'Orient | » Jacque d'Aumale |
| 10 — L'Islam et la Politique des Alliés | » Enrico Insabato |
| 11 — Les Siècles Obscurs du Maghreb | » E. F. Gautier |
| 12 — Précis de Géographie Economique | » J. F. Horrabin |
| 13 — L. Emir Abd El Kader | » Colonel Paun Azar |
| 14 — Allah est Grand | » Mohammed Essad |
| 15 — Le Socialisme Constructif | » Henri de Man |

16—L' Allemagne en Afrique et La Guerre

Par

le Baron Hulot Librairie Telix Alcan 1918

17—La Politique Orientale de la Russie 1918

18—Discours et Messages Général de Gaulle

19—Le Livre Jaune Français

Ministère des Affaires Etrangères

20—. Les Intrigues Anglaises Contre L' Islam

Mohammed Farid Bey

Librairie Nouvelle de Lausanne 1917

مؤلفات فرنسية من مجموعتي

Les Doléances des Peuples Opprimés ;

33—En Algérie

Les Corruptions de la Religion et des Mœurs Indigènes

Par un Musulman Algérien

34—La Tunisie et l'Algérie

Par Cheikh Ismail Sefaihi Ancien Cadi de Tunis

et

Chiekh Saleh Cherif Ancien Professeur à L'Université

Zeitouna de Tunis

35—L'Islam dans l'Armée Française

Lieutenant Indigène Bou kabouya Hadj Adallah

des Tirailleurs Algériens

Librairie Nouvelle de Aouzanne 1917

کتاب انجلیزہ

21—History of The Great War

Military Operations :

22 — War Speeches

Winston Churchill

23 — The Rising Tide of Color

Lothrop Stoddard

24 — The New World of Islam

» »

25 — The Revolt Against Civilisation

» »

26 — The Menace of the Under Man

» »

27— One World

Wendell L'Willkie

28 — A study in German Ideals

General Iron Bissings Testament

29— Germany's Annexationist-Aims by S. Grumbach

مؤلفات طبعیہا ونشریہا

The Christian Literature Society for India.

30— . The Ottoman Turks

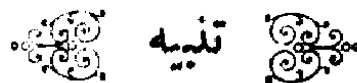
The Rev. Canon sell

31— The Mamluks in Egypt

»

32— Muslims in China

»



وقعت بعض أخطاء مطبعية وزيادات في النص

يمكن للقارئ الكريم تداركها وقت قراءته .